الفصل السادس

الديانات التشبيهية

- الديانة اليونانية
- الديانة الرومانية
- الديانات المصرية القديمة

obeikandl.com

obeikandl.com

الديانة اليونانية

تؤمن بزيوس رب الأرباب والسلطة والقانون، الذي انتصر تمامًا على كل الأقوياء والعمالقة، وتمكن من السيطرة على قوى السموات والأرض وما فيهما وما بينهما. وتصالحت الروح مع الطبيعة في الفن اليوناني؛ حيث تم التعبير عن آلهة اليونان في صور جسدية حسية، فالروح تجلى في العمل الفني، وغدًا للآلهة شكل البشر وجسدهم بل وغاياتهم! وتصالح المعنى مع المادة، والعنصر الروحي مع العنصر الحسي، وتجلى الروحي الباطني بتمامه في المادي الخارجي، وصار الباطني الداخلي معروفًا بتمامه في الظاهري الخارجي[١].

وهو محدود الأفق، ضيق المجال، تمثل الله على أنه ذو طابع إنساني، وظل يفتقد لعنصر حرية الروح؛ لأنه جعل القدر والضرورة تحكم فى كل الأشياء بما فيها الآلهة[٢].

وديانة الإغريق مليئة بالآلهة المعروفة بآلهة الأوليمب، وعددهم اثنا عشر، وهم:

- زيوس كبير الآلهة سيد السماء.
- هيرا زوجة زيوس إلهة الزواج.

وأبناؤهما:

- أبولون إله الشمس.
- أرتميس إلهة الصيد.
- أفروديت إلهة الحب.
- أثينا إلهة العلم والحكمة والفن.

(1) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 333 ff.
(2) Ibid., p. 339, 355.

obeikandi.com

- آرس إله الحرب.
- هرمس رسول الإلهة (وهو إله مأخوذ من المصريين القدماء).
- ديونيسوس إله الخمر والعنب مقترن بالممارسات الإباحية، وهو ابن زيوس من سيميل امرأة بشرية وهي ابنة كادموس ملك طيبة.

وأيضًا كان معهم إخوة زيوس:

- هادس إله الموت والجحيم.
- بوسيدون إله الأوقيانوس الذي يعيش في البحار.
- هيفستوس إله النار.

وكما رأينا من وظائفهم كان كل إله مختصًا بظاهرة كونية، أو ظاهرة إنسانية.

ومن أشهر تلك الآلهة التي لا يزال يعرفها الناس في العصور الحديثة «أفروديت» إلهة الحب التي أحبت أَدُونِيس الشاب الجميل في الأساطير اليونانية الذي صار رمزًا للربيع ونمو المحاصيل.

وغالبًا أخذ الإغريق عقيدة أو أسطورة أفروديت وأدونيس من الفينيقيين والكنعانيين، الذين كانوا يؤمنون بعشتاروت ومحبوبها أدونيس، ثم أخذها الرومان لاحقًا لكن أعطوها اسم فينوس. وأدونيس عند الفينيقيين والكنعانيين هو إله الخصب الذي يموت، ويظل ميتًا ثلاثة أيام، ثم يسترد حياته مرة ثانية. وهكذا فهذه العقيدة تحتوي على فكرة موت الإله وبعثه، وهي مثل أسطورة العنقاء، أحد الجذور التاريخية لعقيدة موت الإله وبعثه من جديد في بعض الديانات الأخرى اللاحقة.

الديانة الرومانية

دين يؤمن بتعدد الآلهة، وهي غالبًا الآلهة اليونانية، مع إعطائها أسماءً أخرى، وتغيير وظائفها في بعض الأحيان.

فزيوس سيد السماء أصبح جوبيتر، وهيرا زوجته أصبحت جونو، وأبولون استمر له الاسم نفسه، وأرتميس صارت ديانا، وأفروديت صارت فينوس، وأثينا صارت مينرفا، وآرس غدا

مارس، وهرمس تحول إلى ميركوري، وديونيسوس تحول إلى باخوس، وبوسيدون تحول إلى نبتون، وهيفستوس تحول إلى فولكان.

وهو دين نفعي، لأن أتباعه ينظرون إلى الآلهة بوصفها وسائل تحقق رغباتهم، وهم يصلون إليها ويعبدونها عندما يحتاجونها ولا سيما في أوقات الضرورة والحرب[٣]. وهو دين سياسي ينظر إلى الدولة بوصفها الغاية القصوى[٤]، أما تصوره للإنسان فقد ظل يفتقد لكثير من العناصر الجوهرية، وأهمها الذاتية واللامحدودية.

وقد بلغ اغتراب الإنسان منتهاه في الدين الروماني، لا لأن الآلهة أصبحت ذات وظائف نفعية للإنسان والدولة، وإنما لأن الإمبراطور أصبح مهيمنًا على كل القوى الإنسانية، وتمركزت فيه كل سلطات الألوهية، وأصبح يملك قدرة قدرية تعسفية أكثر مما تملك الآلهة.

لقد تم تكريم الإمبراطور بوصفه السلطة العليا، وعُظِّم كإله، لأنه هذه السلطة اللاعقلية التي تحكم الأفراد. ويعبر جارودي بشكل مكثف عن فكرة هيجل وتوصيفه لهذا الوضع، فيقول:

«في الإمبراطور تركز وتفرد كل سلطان البشرية المنخلع: كل الإلهي بات محتشدًا في هذا الكائن المحدود، وفي الوقت نفسه، إنه شقاء وألم الفرد الذي جرد من كل كينونته، من كل سلطته، من كل مستقبله»[٥].

ومن ثم «أصبحت الثقة عمياء في قوانين الآلهة الأزلية، ولم تعد تماثيل الآلهة الآن سوى مجرد جثث هامدة فارقتها الحياة، ولم تعد الأناشيد الدينية سوى ألفاظ خاوية زال عنها أي مضمون روحي إيماني، وخلت موائد الآلهة من أي نزعة روحية، ولم يعد في استطاعة الألعاب والاحتفالات أن تزود الوعي بذلك الإحساس السعيد بوجود وحدة بين البشر والآلهة. ولقد تحولت نشوة اليقين الذاتي الذي لا يتزعزع – على نحو ما عبر عنه الوعي الرواقي بتأكيده لذاته في جرأة وشجاعة– إلى إحساس قوي بفقدان أي عنصر إلهي في ضوء سيادة الوعي الشكي المصحوب بقلق حاد؛ مما أدى إلى تداعي العالم الأخلاقي»[٦].

---

(3) Ibid., p. 385..

(4) Ibid., p. 378.

(٥) روجيه جارودي، فكر هيجل، ص ٢٣٨. وهذا أيضًا قدر الإنسان في الأنظمة الديكتاتورية المعاصرة.

(٦) انظر: د. زكريا إبراهيم، هيجل، أو المثالية المطلقة، ص ٤٢٨.

الديانات المصرية القديمة

أقدم من كل الديانات السابقة، ومرت بكل المراحل، من الطوطمية والإحيائية حتى التوحيد، وفضلنا أن نجعلها في نهاية هاتين المجموعتين الطبيعية والتشبيهية؛ لأن دياناتها القديمة انتهت إلى مرحلة مهدت لظهور التوحيد في الوعي الإنساني، وأول الديانات الكتابية ظهرت فيها.

وهي أقدم الديانات الوضعية(٧) نظرًا لقدم الحضارة المصرية ذاتها؛ فقد سبقت بداية التاريخ، حيث يبدأ التاريخ حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد مع بداية معرفة الكتابة والقراءة. وعلى وجه التحديد استُخدمت الكتابة في مصر القديمة في نحو ٣١٠٠ ق.م. أما قبل معرفة الكتابة فيطلق عليها «ما قبل التاريخ»، ويشار غالبًا إلى أن حضارة مصر سابقة بخمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وتفضل المراجع الأجنبية التأريخ لها من سنة ٣١٠٠ ق.م. حتى ٣٠ ق.م. أي تؤرخ لها من بداية معرفة الكتابة، وتنهيها بتحول مصر إلى ولاية رومانية بعد غزو أوغسطس لمصر عام٣٠ ق.م. وانتصاره على أنطوني وكليوباترا .

في حين أن مؤرخي ما قبل التاريخ يرون أن مصر قد شهدت الحضارة منذ ما يزيد على المليون سنة. ويستدلون على ذلك باكتشاف مواقع من المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم الأسفل أو الأقدم. وطبعًا هناك آثار تدل على حياة ونشاط للإنسان قبل ذلك في مصر منذ ثلاثة ملايين سنة، لكنها لا تدل على وجود الحضارة.

وكانت في مراحلها الأولى سماوية، فمن المحتمل أن النبي إدريس مصري ولد في منف(٨). وبعض الروايات العربية تقول إن مصر نسبة إلى مصر بن حام الذي نزل بها بعد الطوفان داعيًا إلى التوحيد(٩). كما عرفت مصر التوحيد مع أخناتون، وموسى، ويوسف الذي تولى وزارة خزانتها. بل إن التوحيد لم يكن غريبًا على بعض دياناتها البالغة القدم، وإن كان توحيدًا مشوبًا بنزعة طبيعية. ولهذه الأسباب ـ رغم سبق الحضارة المصرية على حضارات الأديان السابقة أعلاه ـ أردنا أن نضعها قبل الأديان السماوية؛ باعتبارها ممهدة، أو باعتبار أن البيئة المصرية ذاتها شهدت ظهور بعض أنبياء

(٧) هي أقدم من كل الدينات السابقة، ومرت بكل المراحل، من الطوطمية والإحيائية حتى التوحيد، وفضلنا أن نجعلها في نهاية هاتين المجموعتين الطبيعية والتشبيهية؛ لأن دياناتها القديمة انتهت إلى مرحلة مهدت لظهور التوحيد في الوعي الإنساني، وأول الديانات الكتابية ظهرت فيها.

(٨) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص٢٥.

(٩) المرجع السابق، ص ٢٦.

obeikandl.com

التوحيد، مثل إدريس، وموسى، وهارون، ويوسف، كما أقام بها لفترات متفاوتة بعض أنبياء التوحيد، مثل إبراهيم، ويعقوب، وعيسى.

ومن المهم التأكيد على أن الديانة التي سادت مصر القديمة لم تكن ديانة واحدة، وإنما ديانات متعددة تتابعت على مر التاريخ القديم، ولقد بلغ تنوعها درجة التناقض الجذري بالتناظر مع التبدلات والتحولات السياسية العميقة التي كانت تحدث آنذاك، وأسرع شاهد يتوارد إلى الذهن في هذا الصدد هو ذلك الصراع بين أخناتون وإلهه آتون من جهة وكهنة آمون وآلهتهم من جهة أخرى.

ومن المعروف أن بعض ديانات قدماء المصريين كانت تقوم على عبادة الحيوانات، وهذا دليل على اتحاد الروحي بالطبيعي عند المؤمنين بها، لأن الحيوان يشتمل على دائرتي الطبيعة الحية والروح الغامضة التي لا تزال منغلقة على ذاتها، ولقد تصور بعض قدماء المصريين أن في عالم الحيوان الشيء الباطن وما هو غير قابل للإدراك، ومن ثم فإن عبادة الحيوان تدلل على ارتباط الروحي والطبيعي، حيث إن الحيوان مشتمل على الجانبين. ولقد تحولت أشكال الحيوانات إلى رموز، فالصقر رمز التنبؤ، وأبيس رمز الفيضان، والخنفساء رمز التوالد والنشوء[١٠].

ولكن إذا كان بعض قدماء المصريين قد عبدوا مظاهر الطبيعة، فإنهم قد أعطوها معنى روحيًّا، فالنيل رمز الحياة، والشمس رمز العطاء.

ومن أشهر الديانات المصرية ديانة أوزوريس التي انتشرت خارج حدود مصر أيضًا ووصلت إلى أوروبا. وتروي تواريخ الأساطير المصرية أن أوزوريس قتله أخوه «ست» ليستولي على عرشه، ولكن إيزيس زوجة أوزوريس كانت ساحرة كبرى، نجحت في أن تلقح نفسها من أوزوريس الميت، ثم أنجبت حورس الذي حارب عمه «ست» وانتصر عليه، واسترد العرش السليب. وقد اعتبر المصريون القدماء «ست» إلهًا للشر والانتقام، على نقيض أخيه أوزوريس إله الخير والمحبة، وكان «ست» هو المعبود القومي للصعيد، وعاصمته أمبوس، وكان حيوانه المقدس كلبًا بريًّا، وكان رمزه القوة والبأس والعواصف والرعود. ويقع هيجل في خطأ تاريخي آخر بخصوص نفس الأسطورة؛ إذ يذكر في «محاضرات في علم الجمال» أن: «أوزوريس يـُحبل به، ثم يولد، ثم يقتله إعصار»[١١]!!

(10) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 3- 322

(١١) هيجل، محاضرات في علم الجمال، ج٢/ ص ٨٧ .

لكن ماذا عن ادعاء بعض الفراعنة الربوبية؟

كلمة فرعون مكونة من لفظين معناهما «البيت الكبير»، وقد أطلقت على ملوك مصر في الفترة بين ١٥٥٤ و ١٣٠٤ق.م. وأشاع الملوك بمساعدة الكهنة أن الملوك الفراعنة هم تجسيدات أرضية بشرية للإله حورس ابن أوزوريس وإيزيس. وكأن فكرة تجسد الإلهي في البشري بدأت بالتجسد في الملوك، ثم تحولت بعد ذلك إلى أشخاص من خارج السلالات الملكية في ديانات أخرى!

وعبد المصريون عديدًا من الآلهة في عصورهم المختلفة، وأحيان في عصر واحد. وكان رع إله الشمس إلهًا أساسيًّا لفترة طويلة في الحضارة المصرية القديمة. وكذلك آمون إله الشمس. وفي وقت لاحق تم دمج آمون برع، وصارا آمون ـ رع إلهًا رئيسيًّا! وكان معبده في الكرنك أكبر المعابد في مصر كلها. ومن الآلهة أيضًا الإله خنوم في فيَلة (الفنتين)، والإله بتاح في ممفيس، وتحوت إله الحكمة في هيرموبولس. كما عبدوا بعض الإلهات، مثل رَنُوتَتْ إلهة الحصاد. وكانت إيزيس من أهم الإلهات حسب الأسطورة السابقة أعلاه.

والمصريون هم أول مكتشف لخلود الروح الفردية، ولا مانع إطلاقًا من مجيئها من ديانة إدريس (أو تحوت أو هرمس)، ومعها اكتشفوا الضمير، وكانت فكرة الحساب الأخروي رائعة؛ فالحساب هنا فردي وليس جماعيًّا، ويكون بعد الموت وليس هناك يوم للحساب الجماعي (يوم القيامة). حيث تبين نصوص كتاب الموتى (أقدم الكتب الدينية التي وصلت إلينا) رحلة الروح بعد الموت إلى مملكة أوزوريس، حيث تتم محاكمة الميت وحسابه عن أعماله، ووزن قلبه في ميزان العدالة، فيوضع في كفة، وفي الكفة الأخرى توضع ريشة، فإذا حدث تعادل بين الكفتين، سُمح له بالانضمام إلى مملكة الخلود (مملكة أوزوريس)، وإذا لم تتوازن الكفتان التقمته ملتهمة الموتى «عممت» فيتلاشى إلى الأبد، ويكون العدم مصيره[١٢].

وبمعرفة المصريين لخلود الروح الفردية، مهدوا الطريق أمام تحرر الوعي، وإن لم يفلحوا في تخطي عتبة مملكة حرية الروح[١٣]؛ لارتباط عقائدهم بالطبيعة، وعلى سبيل المثال: نجد ديانة هليوبولس المصرية (ديانة عبادة الشمس)، تؤمن بالبعث والخلود، وترمز له بطائر العنقاء

(١٢) كتاب الموتى، ترجمه عن الهيروغليفية: السير والس بدج، وعن الإنجليزية د. فيليب عطية (القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٨م). ص ١٩٤-١٩٥، وص ٢٦٧.

(13) Hegel, Vorlesungen uber die Philosophie der Religion,2, S.520.

قارن: هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، ج٢/ ص ٢٠٩. ومحاضرات في علم الجمال، ج٢/ ص ٨٣.

Phoenix، وهو طائر أسطوري يحترق ذاتيًّا ثم ينبعث مرة أخرى من رماده، أي أنه يتضمن سلبه، ومن ثم تشتمل الفكرة الإلهية في داخلها على «الآخر» وعبر ذلك «الآخر» تعود مرة أخرى إلى ذاتها[14]. وهو في ديانة هليوبولس المصرية (ديانة عبادة الشمس) رمز للشمس التي تزول كل مساء، وتعود من جديد في صباح اليوم التالي. وربما يكون هو طائر البينو الشبيه باللقلق عند قدماء المصريين.

ومن المحتمل أن الفينيقيين والإغريق والعرب القدماء أخذوا عقيدة العنقاء من المصريين القدماء. وهي أحد جذور عقيدة موت الإله وبعثه من جديد في بعض الديانات الأخرى.

وأود أن أقف قليلًا عند الهرمسية لأن منشأها غالبًا مصري، خاصة إذا ما ربطنا بين إدريس وأخنوخ وتحوت وهرمس على أنهم في الأصل شخصية واحدة، وهذا أمر محتمل. فثمة رأي يقول أن هرمس مصري[15]، بينما ترى بعض المصادر العربية وجود تطابق بين هرمس وإدريس النبي[16]. وفي رواية عن ابن عباس قال: أول نبي بعث في الأرض بعد آدم إدريس وهو أخنوخ[17]. ويرى آخرون أن الإله المصري تحوت، هو مؤلف تلك الكشوف الفلسفية. وليس في القرآن أو الحديث الصحيح، ما يدل أو ينفي أن إدريس هو هرمس أو أخنوخ أو تحوت.

وسواء أكان هرمس هو إدريس أو أخنوخ أو تحوت، فهذا يسير بنا نحو تأكيد احتمالية نشأته المصرية. خاصة أن كثيرًا من أوصاف تلك الشخصيات تتقاطع بشكل أساسي، مثل حامل الحكمة وحارسها، وكاتب الآلهة، وأول من خط بالقلم وقطع الثياب وخاطها. وقد جعلت المراجع العربية القديمة من هرمس أول من تكلم في الصنعة (الكيمياء) وله في ذلك عدة كتب، ووقف على عمل الطلسميات وله في ذلك كتب كثيرة[18]. كما أنه «أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم، فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب»[19].

---

(14) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 309,314.
Werke, 16,s. 408.

(١٥) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية (مصر، بدون تاريخ)، ص٢٠٥.

(١٦) أبو الوفا المبشر بن فاتك، مختار الحكم ومحاسن الكلم (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، تحقيق د. عبدالرحمن بدوي، ١٩٨٠م)، ص٧.

(١٧) الطبقات الكبرى ج ١/ ص ٤٠.

(١٨) ابن النديم، الفهرست، تحقيق غوستاف فلوغل (ليزيغ، ١٨٧١م)، ص ٣٥١-٣٥٣.

(١٩) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ليزيغ، ١٩٠٣م)، ص٣.

obeikandl.com

ويقال أن هرمس هو المؤلف للكتب المعروفة بالكتب الهرمسية، وعلى الأخص للمجموعة التي تعرف باسم الأول منها «بوامندريس»[٢٠].

وفي بدايتها كانت الهرمسية دينًا ثم تحولت إلى تيار غنوصي (عرفاني) فلسفي يجمع بين مزيج من التصورات المصرية والفارسية واليونانية. حيث يمكن القول بأن الآراء الفلسفية الواردة في الكتب الهرمسية هي خليط غريب من الأفكار الفيثاغورثية، والأفلاطونية، والرواقية، والفيزياء الأرسطية، والتنجيم الكلداني، وغيرها. ويزعم أصحاب هذه الكتابات أنهم ينطقون عن وحي إلهي وأن هدفهم هو خلاص الإنسان، ويقررون أنه على قمة الوجود يقوم الله، وهو لا يمكن معرفته ولا وصفه[٢١].

والإلهيات الهرمسية في شكلها الأخير (وطبعًا هنا نبتعد عن عقيدة إدريس التوحيدية) تقول بإلهين اثنين أحدهما مسخر للآخر:

١- **الإله المتعالي الذي لا يصدق عليه وصف ولا تدركه العقول ولا الأبصار**، وبالتالي فهو لا يعرف إلا بالسلب: أي أنه لا يوصف إيجابًا، بل سلبًا، بمعنى سلب أية صفة عنه، لأن أية صفة مأخوذة من العالم لا تصلح للانطباق عليه، فهو فوق كل شيء، إنه منزه تمام التنزيه عن أية مشابهة بينه وبين أي شيء آخر في العالم. لا يهتم بشيء من الكون، ولا يدخل في علمه أي شيء منه لأن الكون وما فيه محفوف بالنقص، وهذا الإله منزه عن الدخول في أية علاقة مع ما هو ناقص، ولذلك كان من غير الممكن التوصل إلى معرفته عن طريق تأمل الكون ونظامه، أي عن طريق العقل والحواس[٢٢].

٢- **الإله الخالق الصانع**: هو الذي صنع العالم ولذلك فهو يتجلى فيه، يمكن إدراكه والتعرف عليه بتأمل الكون ونظامه من أجل ذلك يقال إنه في كل مكان، أينما يتجه الإنسان ببصره يجده، فكل شيء شاهد عليه.

---

(٢٠) جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ص٦٤٨.
(٢١) انظر: د. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلاسفة، ج٢/ ص٥٣٨.
(٢٢) انظر: محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص١٧٦-١٧٧.

وفي هذا المعنى ورد في نص هرمسي ما يلي: «إذا أردت أن ترى الله فانظر إلى الشمس، إلى حركة القمر، إلى تناسق النجوم، واسأل نفسك: من يحفظ النظام في كل ذلك». ويخاطب نص آخر أحد المريدين قائلًا: «هل تقول: إن الله لا تدركه الأبصار؟ لا تفه بمثل هذا الكلام، فمن هو أظهر من الله؟ إنه لم يخلق كل شيء إلا من أجل أن يريك نفسه في جميع مخلوقاته»[٢٣].

* * *

(٢٣) مقتبس عن المصدر السابق، ص ١٧٧.

obeikandl.com